تاريخ البيمارستانات

فى العهد الاسلامى

للدكتور أحمد باك عيسى

— ٣ —

وكانت أخت الحفيد أبى بكر بن زهر و بنتها عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان لنساء المنصور أبى يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن ، ولا يقبل المنصور وأهله ولدا إلا أخت الحفيد او بنتها لما توفيت أمها (١)

وكانت أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطجالى من أهل لوشه تجود القرآن وتشارك فى فنون من الطب وأفراد مسائل الطب وتنظم الشعر (٢)

البيمارستان المحمول

كان البيمارستان المحمول معروفا لدى الاطباء فى الدول الأسلامية وكانوا يرسلونه لعلاج أهل السواد الخالية بلادهم من بيمارستان ثابت أو التى تظهر فيها الامراض الوبائية ، فقد ذكر ابن خلكان (٣) وابن القفطى (٤) أن أبا الحكم المغربى عبد الله (٥) ابن المظفر بن عبد الله المرسى نزيل دمشق كان طبيب البيمارستان الذى كان يحمله أربعون جملا المستصحب فى معسكر السلطان محمود السلجوقى حيث خيم ، وكان القاضى السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم الذى صار قاضى القضاة ببغداد فى أيام الامام المقتفى فاصداً وطبيباً فى هذا المارستان المذكور المحمول وكان أبو الحكم يشاركه .

ولم تكن البيمارستانات المحمولة مقصورة على الجيوش بل كانت ترسل أيضاً للمسجونين وللاهالى على السواء .

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة (٦) إن الوزير على بن عيسى بن الجراح فى أيام تقلده

---

(١) أصيبعة ص ٧٠ ج ٢

(٢) ص ٢٦٥ أول . الاحاطة فى أخبار غرناطة للوزير محمد لسان الدين الخطيب

(٣) ص ٣٤٤ اول ابن خلكان الطبعة الاميرية طبعة بولاق سنة ١٢٩٩

(٤) ص ٤٠٥ ابن القفطى طبعة ليدن

(٥) ولد سنة ٤٨٦ هـ ١٠٩٣ م وتوفى سنة ٥٤٩ هـ ١١٥٥ م

(٦) ص ١٩٣ ابن القفطى طبعة ليبزج وص ٢٢١ أصيبعة ج ١

الدواوين من قبل المقتدر بالله وتدبير المملكة فى أيام وزارة حامد بن أبى العباس وقع إلى والده سنان بن ثابت فى سنة كثرت فيها الامراض جداً وكان سنان يتقلد البيمارستانات ببغداد وغيرها توقيعاً نسخته : فكرت مد الله فى عمرك فى أمر من فى الحبوس وإنهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف فى منافعهم ولقاء من يشاورونه من الاطباء فى أمراضهم فينبغى أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون اليهم فى كل يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون اليه من المزورات وتتقدم اليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريحوا علمهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالى، ففعل سنان ذلك ثم وقع اليه توقيعاً آخر : فكرت فيمن بالسواد من أهله وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرض لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء ،فتقدم مد الله فى عمرك بأيفاد متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون السواد ويقيمون فى كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره ، ففعل سنان ذلك وانتهى أصحابه إلى سورا (بلدة من بلاد العراق) والغالب على أهلها اليهود . فكتب سنان إلى الوزير على بن عيسى يعرفه ورود كتب أصحابه عليه من السواد بأن أكثر من بسورا وشهرملك يهود وأنهم استأذنوا فى المقام عليهم وعلاجهم أو الانصراف عنهم إلى غيرهم وأنه لا يعلم بما يجيبهم به إذ كان لا يعرف رأيه فى أهل الذمة ،وأعلمه أن الرسم فى بيمارستان الحضرة قد جرى للحلى والذمى فوقع الوزير توقيعاً نسخته : فهمت ما كتبت به أكرمك الله وليس بيننا خلاف فى أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب ، ولكن الذى يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم والمسلمين قبل أهل الذمة فأذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون اليه صرف فى الطبقة التى بعدهم ، فاعمل أكرمك الله على ذلك واكتب إلى أصحابك به ووصى بالتنقل فى القرى والمواضع التى فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية وإن لم يجدوا بذرقة توقفوا عن المسير حتى يصح لهم الطريق ويصلح السبيل فأنهم إن فعلوا هذا وفقوا إن شاء الله تعالى.

خزانة الشراب

هى الصيدلية فى البيمارستان قال ابو العباس القلقشندى (١) هذه الخزانة هى المعبر عنها فى زماننا بالشرابخاناه وهى الحواصل المعبر عنها بالبيوت ذلك انهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه كالشراب خاناه والطشت خاناه والطبل خاناه ونحوها وخاناه لفظ فارسى معناه البيت فتأويلها بيت كذا إلا انهم يؤخرون المضاف عن المضاف اليه على عادة العجم فى ذلك .

(١) ص ٤٧٦ صبح الاعشى ج ٣

فالشراب خاناه معناه بيت الشراب وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمربات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التى لا توجد إلا فيها ، وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصينى من الزبادى والصحون والبرانى والأزيار ما لا يقدر عليه غير الملوك . وقد كان لكل مارستان خزانة للشراب كاملة كما فى وقفية المارستان المنصورى وغيره ولكل شرابخاناه مهتار يعرف بمهتار الشرابخاناه (ومهتر بالفارسية بمعنى رئيس) ويعرف بمهتار الشربخاناه متسلم لحواصلها له مكانة عالية وتحت يده غلمان عنده برسم الخدمة يطلق على كل منهم شراب دار (١)

نظارة البيمارستان ورتب أطبائه

كان للبيمارستان ناظر ينظر أو يشرف على إدارته وكان النظر عليه معدوداً من الوظائف الديوانية العظيمة قال ابو العباس احمد القلقشندى (٢) من الوظائف الديوانية نظر البيمارستان وقد صار النظر عليه معروفا بالنائب (اى نائب المملكة (vice-roi) يفوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام وقال عند الكلام عن نائب السلطنة ومعه (أى نائب السلطان) يكون نظر البيمارستان الكبير الذى بدمشق كما يكون نظر البيمارستان المنصورى بالقاهرة مع أتابك العساكر (٣) وقال عن الوظائف الكبيرة بالقاهرة إن منها صحابة ديوان البيمارستان وموضوعها التحدث فى كل ما يتحدث به ناظر البيمارستان وقال عن وظيفة نظر البيمارستان « هى من أجل الوظائف وأعلاها وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية (٤) وذكر ابن إياس أن نظر البيمارستان كان من أهم وظائف الدولة يتولاه الأتابكى ويذهب اليه فى حفلة حافلة قال فى حوادث سنة ٩٠١ هـ سنة ١٤٩٥م ومستهلها يوم الاحد فى هذا اليوم خلع على الأتابكى تمراز وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى فتوجه هناك فى موكب حافل » وذلك فى سلطنة الملك الأشرف أبي النصر قايتباى المحمودى فى عصر الخليفة المتوكل على الله العباس وقال خليل بن ايبك الظاهرى (٥) « إن للبيمارستان شاد وظيفة من وظائف الدولة تقضى من يستقر فيها أمره عشرين حاجباً » وقال ابو العباس القلقشندى (٦) من الوظائف بدمشق وظائف أرباب الصناعات منها رياسة الطب ورياسة الكحالة ورياسة الجرائحية وكلها على نحو ما هو موجود فى الديار المصرية وولاية كل منها بتوقيع كريم من

(١) ص١٠ صبح الاعشى ج ٤ (٢) ص ٣٤ صبح الاعشى ج ٤ (٣) وأصله أطابك ومعناه الولد الامير وهو أكبر الامراء المتقدمين بعد النائب الكامل . وليس له وظيفة ترجع الى حكم وأمر ونهى ، وغايته رفعة المحال وعلو المقام ص١٨ جزء ١ صبح (٤) ص ١٩٢ ابن اياس ج٢ (٥) ص١٠٥ زبدة كشف الممالك (٦) ص ١٩٤ صبح ج ٤

النائب (١) وألقاب أرباب الوظائف من أهل الصناعات هى:

١ — رئيس الأطباء وهو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم فى التطبب ونحو ذلك

٢ — رئيس الكحالين وحكمه فى الكلام على طائفة الكحالة حكم رئيس الأطباء فى طائفة الأطباء.

٣ — رئيس الجرائحية وحكمه فى الكلام على طائفة الجرائحية والمجبرين كالرئيسين المتقدمين (٢)

وكانت أعظم الوظائف الصناعية فى الدولة الفاطمية بمصر وظائف الأطباء فكانت ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية كرياسة الطب من الدرجة الأولى درجة المجلس أو إمرة المجلس وموضوعها التحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ولا يكون إلا واحداً وفى المرتبة الأولى مرتبة المجلس العالى وكان يكتب له كما يأتى: «المجلس العالى القضائى العالمى الفاضلى الكاملى الأوحدى الفلانى جمال الأسلام والمسلمين سيد الرؤساء فى العالمين أوحد الفضلاء والمقربين خاصة الملوك والسلاطين»(٣) وكان من الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص وهو الطبيب الخاص بالخليفة يجلس على باب دار الخليفة كل يوم ويجلس على الدكك التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج الاستاذون (الخدم والطواشية) فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتب لهم رقاعاً على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهداً لهم ولكل منهم الجارى والراتب على قدره (٤)

وللشرابخاناه وظيفة شد وموضوعها التحدث فى أمر الشرابخاناه السلطانية وما عمل اليها من السكر والمشروب والفواكه وغير ذلك وتارة يكون مقدما (٥) وتارة يكون طبلخانا (٦)

احمد عيسى

(يتبع)

---

(١) صبح الاعشى ج ٤ ص ١٩٤ (٢) ص ٤٦٧ صبح الاعشى ج ٥ (٣) صبح الاعشى ج ٦ ص ١٦٨ (٤) صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٦

(٥) المقدم منصب من الدرجة الاولى من مناصب الدولة فى حكم المماليك ويقال لاربابها مقدمو الالوف ولكل واحد منهم المقدمة على الف فارس من دونه من الامراء وهذه الطبقة هى أعلى مراتب الامراء على تفاوت درجاتهم ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب وكانت عدتهم أربعة وعشرين مقدما بالديار المصرية فى دولة المماليك ثم نقصت عدة المقدمين عما كانت عليه بعد ذلك وصارت دائرة بين الثمانية عشر والعشرين مقدما مما فى ذلك نائب الاسكندرية ونائبا الوجهين القبلى والبحرى.

(٦) الطبلخاناه منصب من الطبقة الثانية من مناصب الدولة فى حكم المماليك ويكون للواحد منهم أربعون فارساً الى ثمانين فارساً وهذه الطبقة لا ضابط لعدة امرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص ومن امراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالاعمال وأكابر الولاة «صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥»